

« على قبر السلطان صلاح الدين ،

خرجنا من المكتبة الظاهرية وتوجهنا إلى جهة الجامع
الأموى ، وقبل أن ندخل فيه زرنا ضريح شرف الاسلام
والمسلمين ناصر الملة والدين العازى صلاح الدين الأيوبي
الذى بيض الله به وجه الاسلام والمسلمين ، ورفع رأسهم
عالياً ورد غارة الصليبيين وكسر شوكتهم . وقفنا أمام باب
المقبرة وقفة واستحضرنا مآثرته الكبرى ، وجلالة عمله الخالد ،
وذكرنا وقعة حطين التى قضت على الصليبيين وكانت فتحاً
للإسلام تضاءلت أمامه الفتوح ، وأثبت عليه الملائكة
والروح ، وتمثلت ببيتى الزركلى على لسان فلسطين الشهيدة
وأهلها :

ما بق صلاح الدين ثمانية فينا

وجددى حطين أو شبه حطينا

وأنا من قديم الزمان أحمل للسلطان الشهيد نور الدين

زنكى والغازى صلاح الدين الأيوبي من الاجلال والاحترام
مالا أحمل لملك من ملوك الاسلام وأتقرب إلى الله بحبهما
والدعاء لهما .

دخلنا إلى قبر المجاهد العظيم الذى انتصر لمحمد ﷺ
وأدخل السرور على روحه وغضب لدينه وحفظ للاسلام
شرفه وبيته المقدس ، والامة الاسلامية كرامتها وحريتها ،
وترحمت عليه ودعوت الله له ، وأخبرنى الرفاق أن جنرال
« غورو » الفرنسى لما جاء وفتح سورية جاء إلى ضريح
السلطان وركله برجله وقال : « إلى متى يا صلاح الدين تبقى
نائماً ؟ ما قد حضرنا هنا وفتحنا سورية » ، ولا يستبعد ذلك
من طيش الفرنسيين وكبر الأوروبيين ، ولكن كما
قال الشاعر :

كذاك الحى يغلب ألف ميت .

(مقتبس من كتاب : « مذكرات سائح في الشرق العربى »
للوألف) .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد
المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان
وإيمان وجهاد إلى يوم الدين ، أما بعد :

فإن الملك الناصر السلطان صلاح الدين الأيوبي معجزة
من معجزات الاسلام الخالدة ، وآية من آيات الله الباهرة ،
وهو حقيق بأن يعكف على دراسة سيرته وأخباره أجيال
المسلمين وعلمائهم وحكامهم ، وأصحاب الفتوة والفروسة
والطموح والغيرة الاسلامية ، والبطولة الانسانية في كل زمان
ومكان وفي كل عصر ومصر ، وأن يتنافس المؤلفون ،
وحلة الأقلام والمحققون ، في التأليف في سيرته ومكارمه
وبطولاته ، وأن تشكل له مجامع علمية ، تنقطع إلى التحقيق
والتأليف في هذا الموضوع - ولكن مع الأسف الشديد -

لم يوف المسلمون والعرب حق هذا الرجل ، ولم ينصفوا هذا الموضوع ، ولا يزال ما أُلِفَ في بعض اللغات الأوروبية - وخاصة في اللغة الانجليزية - يفوق كثيراً ما أُلِفَ في اللغات الإسلامية ، ولا يزال هذا الموضوع ينتظر مؤلفاً على الهمة ، طويل الدراسة ، دقيق النظر ، رحب الصدر ، واسع الأناة ، يتفرغ للتأليف في هذا الموضوع .

ولعل هذا العصر الذي نعيشه هو أشد حاجة ، وأكثر طلباً لإبراز محاسنه ، وتحديد مكائنه في تاريخ الجهاد والتجديد الإسلامي من كل عصر مضى ، ولا يزال هاتف الغيب يهيب بهذه الأمة على لسان خير الدين الزركلى ويقول :

هاتى صلاح الدين ثالثة فينا

وجددى حطين أوشبه حطينا

وكان قد سبق لى فصل مفرد فى سيرة صلاح الدين ضمته إلى فصول كتاب ألقته فى لغة المسلمين ، واللغة العلمية فى الهند التى تسمى : بـ « أردو » أسميته « تاريخ الدعوة والعزيمة » . ولما ألح على الأخ العزيز الأستاذ محمد على دولة ،

صاحب (دار القلم) في دمشق بتأليف كتاب في سيرة هذا الرجل العظيم ، وكنت ولا أزال أعتبر تحقيق هذا الغرض عملاً أتقرب به إلى الله ، وأرجو به الخير الكثير لقادة البلاد الإسلامية ، والشباب المثقف الطموح ، ولكن ذلك يحتاج إلى فراغ خاطر ، وسعة من الوقت ، وكثرة مراجعة لما كتب عنه في عصره وبعد عصره ، في اللغات الإسلامية والأجنبية ، ولعله لا يتسنى لي إلا بعد مدة طويلة ، فاقترحت على أحد إخواني الشباب وهو الأستاذ محمد أجمل الاصلاحى الندوى أن ينقل هذا الفصل إلى اللغة العربية ، فانه على وجازته قد احتوى على معلومات مفيدة ، ويعطى صورة إجمالية ، ولكن مشرقة وضاعة لهذا القائد الاسلامى الكبير ، ويشوق إلى دراسة أوسع ، ومعرفة أكمل (وإن لم يصحبها وابل فضل) وقام بالترجمة والنقل في مدة قريبة ، وأحسن وأجاد ، وتناولت عمله بتحرير خفيف وتعديل يسير .

وما هو بين يدي القراء ، عسى أن يجدوا فيه ما يقوى ثقتهم بخلود هذه الرسالة ، ونجاة هذه الأمة ، وقوة الايمان ،

وما يصنع من عجائب ، ويعرفون به الفارق الكبير بين هذا القائد الاسلامى الذى تربى فى أحضان الايمان ، وتخرج فى مدرسة محمد عليه الصلاة والسلام ، وبين القيادة الذين إرتضعوا بلبان الثقافة الاجنية ، ونشأوا فى أحضان النفعية والمادية ، وأبرزتهم إلى ميدان القيادة الأغراض الشخصية ، والمطامع السياسية ، وهو الفارق الذى ميز تمييزاً كبيراً بين النتائج والآثار ، ولا يزال العالم الاسلامى يكتوى بناره ، ويدفع قيمته . وبالله التوفيق .

١٣٩٥/٤/١٠ هـ ١٩٧٥/٤/٢٣ م

أبو الحسن على الحسنى الندوى

زاوية الشيخ علم الله الحسنى رحمه الله

رائع بريلى

الفارات الصليبية

وخطر جديد على الاسلام

بينما كانت حركة العلم والدرس والتأليف قائمة على قدم وساق في العواصم الاسلامية وفي العالم الاسلامي ، وكان عدد من كبار المشايخ والمربين منقطعين إلى تزكية النفوس وإصلاح القلوب ، كان العالم الاسلامي كله مهدداً بخطر كبير ، وقد أصبح وجود المسلمين حتى الاسلام نفسه معرضاً للفناء ، وكانت أوروبا النصرانية منذ قديم الزمان تنطوي على حقد دفين للاسلام ، وتضمر له ولأهله عداً توارثته كابراً عن كابر وجيلاً بعد جيل ، فقد استولى المسلمون على مملكتها الشرقية التي كانت تحكمها الدولة البيزنطية ، وكانت جميع مقدساتها ومولد المسيح نفسه تحت حضانتهم وسيطرتهم ، وكان يكفي هذا الوضع لاستفزاز

أوروبا وإثارة دافعها لاخذ الثأر من المسلمين ، ولكن لم تكن لتجاسر على الطموح إلى الشام وفلسطين أو أى بلد إسلامى ، لوجود دول إسلامية قوية وهجماتها المتواصلة على الدولة النصرانية المجاورة ، إلا أنها لما رأت سقوط الدولة السلجوقية وضعف الثغور الشمالية للمملكة الإسلامية تشجعت وتطلعت ، وساعدهما حظها ، فوجدت فى هذا العصر خطياً مصقفاً ، وواعظاً دينياً مثيراً ، فى شخصية الراهب « بطرس » الذى ألهم مشاعر الناس فى العالم النصارى بخطبه الرنانة المجلجلة ، وأحدث فيه موجة عارمة من الجنون الدينى ، من أقصاء إلى أقصاء ، وتضافرت كذلك عوامل أخرى عديدة ، سياسية واقتصادية ، قد حبت الغارات الصليبية إلى الناس .

على كل حال ، فأول جيش للصليبيين توجه إلى الشام سنة ١٠٩٠ هـ ، واستولى فى ظرف عامين على مدن « الرها »

(١) راجع دائرة المعارف البريطانية ، مقال CRUSADES

و « أنطاكية ، وأكثر قلاعها ، وأخذوا « بيت المقدس » ،
 في سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م) وفي بضع سنين أصبح جزء
 كبير من فلسطين وساحل بلاد الشام تحت أيدي الصليبيين
 مثل « أنطوطوس ، و « عكة ، و « طرابلس الشرق » ،
 و « صيدا » . ويصور المؤرخ الانجليزى الكبير « ستينلى لين
 بول ، دخول الجيوش الصليبية فى البلد الاسلامى ،
 فيقول :

« توغل الجيش الصليبي فى البلاد كما يشق أحد خشباً
 منخوراً بالياً ، وخيل للناس ولو لبرهة من الزمان أن
 الصليبيين سوف يحطمون جذع دوحه الاسلام ويكسرونها
 تكسيراً » .

ويتحدث مؤرخ آخر - وهو من كبار المؤرخين
 النصارى - عما فعل الصليبيون الفاشمون الالاء بالمسلمين
 المنكوبين العزل الأبرياء عند دخولهم بيت المقدس ، وقد

(١) المراد ببيت المقدس : مدينة القدس .

(٢) « السلطان صلاح الدين الايوبي » .

تملكتهم نشوة الانتصار ، فيقول :

« لما دخل المغيرون الصليبيون بيت المقدس متصرين
وضعوا السيف في الناس ، وأحدثوا مجزرة هائلة ، حتى
يقال : إن خيل الصليبيين الذين ذهبوا إلى مسجد عمر
راكبين كانت غارقة في الدماء إلى الركب ، وأخذوا بأرجل
الأطفال وضربوهم عرض الحائط ، أو دوروهم ورموا بهم
من سور البلد ، وأحرقوا اليهود كلهم في هيكلمهم وهم
أحياء . »

« وفي اليوم الثاني تعمدوا مثل هذه الاضطهادات التي
ترتد لها الفرائص على مستوى أكبر وأوسع ، ولم يزل
يناشدهم « تينكرد » ما قد جعله في ذمته من تأمين ثلاث
مائة من الأسرى ، ولكن لم يستجيبوا لصياحه ، ولم يراعوا
ضمانه ، وقتلوه عن آخرهم . ثم حدثت مجزرة مريعة ،
فقتلت الرجال والنساء والأطفال تقتيلا ، ومثلت اجسادهم
تمثيلا ، وقد تكدست قطع أجسادهم وأعضائهم الممزقة ،
ولما انتهت هذه المجزرة الهائلة أمروا الأسرى العرب

فغسلوا شوارع المدينة المتلطخة بالدماء .

وكانت نكسة « بيت المقدس » تؤذن بضعف المملكة الإسلامية وسقوطها ، ويقظة العالم النصارى ونهوض قوته الناشئة ، وكانت نذير خطر في العالم الإسلامى ، فقد تأسست أربع ولايات نصرانية في الشام وفلسطين (القدس ، وأنطاكية ، وطرابلس ، والرها) ، وكانت تشكل خطراً قائماً وسيفاً مسلولاً على حرية مركز الإسلام ، وقد توسعت أطماع النصارى إلى أن هم « ريجى نالد » وإلى كرك بالزحف على الحرمين الشريفين ، وتقوه بما يتضمن الاعتداء على مدفن الرسول ﷺ ، وأبدى نواياه الخبيثة .

والحق أن هذه المرحلة كانت أدق وأخرج مرحلة في التاريخ الإسلامى بعد وقعة الردة ، فكان وجود الإسلام معرضاً للخطر ، وقد تحتم على العالم الإسلامى أن يخوض معركة مصيرية حاسمة .

وفي أوائل القرن السادس الهجرى كان العالم الإسلامى

(١) . دائرة المعارف البريطانية ، ج : ٦ ، ص : ٦٢٧ .

قد وقع فرصة لاضطراب متزايد وفوضى عامة ، فكان خلفاء ملك شاه السلجوقي متحاربين فيما بينهم ، وأما الخلفاء العباسيون فقد نقلوا سيادتهم إلى الأتراك قبل زمن بعيد ، ولم يوجد في العالم الاسلامي سلطان عملاق أو قائد عبقري يحمل من صلاحية القيادة وتدير الامر ، ما يجمع به البقية الباقية من طاقات العالم الاسلامي ، ويضمها تحت لواء واحد ، ويقاوم الخطر الذي يتعرض له من الشمال والغرب ، وصدق « ستينلي لين بول » ، إذ يقول :

« كان هذا العصر عصر لبس واضطراب ، وقد تملكهم العجب لما يرونه من احتضار مثل الدولة السلجوقية المرهوبة الجانب ، المترامية الأطراف ، وظلت هذه المرحلة — مرحلة الفوضى والاضطراب — إلى أن برزت طاقات جديدة ووجهت إلى جهة واحدة ، وبالجمله فكان هذا العصر الانتقالى أطيب فرصة لأوروبا لشن الغارة على المملكة الاسلامية وتثبيت انتصارها على وجه الدمر » .

(١) السلطان صلاح الدين ، ص ٢١ .

أتابك عماد الدين الزنكي :

وإنما كان العالم الاسلامي يعاني من هذا الصراع
الغيف ، واليأس المتزايد ، والكمد القاتل ، إذ تألق على
أفقہ نجم جديد ، ووجد العالم الاسلامي — كما تعودہ في
أدق مراحلہ وأحرج مأزقہ — قائداً جديداً ، ومجاهداً
عبقرياً وبطلاً مغواراً ، وبرزت طاقة جديدة عملاقة من
حيث لم يكن في حسابان أحد — يقول « لين بول » :

« تحتم على المسلمين أن يعلنوا الجهاد ، ويقذفوا بقائد
عصامي ، يثبت جراته وبسالته وصلاحيته الحربية ،
وينجب أمراء الترك وولاء الدولة طائفة من الأبطال
المؤمنين المحاربين ، ليؤاخذوا الصليبيين على ما اقترفوه من
عدوان واضطهاد للمسلمين الأبرياء ، وما قد برز القائد
العصامي : عماد الدين الزنكي » (١) .

وكان عماد الدين ربيب نعمة السلاجقة ، ومعلم أبناء
السلطان محمود السلجوقي ، وقد ولاء السلطان على

(١) السلطان صلاح الدين ، ص ٢٩ .

الموصل ، فجد عماد الدين قواته في العراق والشام ، وشن الغارة على « الرها » التي كانت أقوى وأحسن منطقة في ولاية الصليبيين ، ولها أهميتها الاستراتيجية الخاصة ، فاستولى الزنكي عليها في السادس من جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ هـ (٢٣ كانون الأول ١١٤٤ م) وكان انتصاره « فتح الفتوح » كما يعبر عنه المؤرخون العرب ، وكانت هذه المدينة طاقة كبيرة للملكة اللاتينية ، وهكذا تحصن وادي الفرات من خطر الصليبيين . وبعد مدة قليلة من هذا الانتصار الباهر استشهد عماد الدين بيد عبد في سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) ، ولكن باب الجهاد الرائع والكفاح المتواصل للصليبيين الذي فتحه قبل شهادته لم يزل مفتوحاً على مصراعيه بفضل جهود ابنه الكبير الملك العادل نور الدين الزنكي الذي فاق في ذلك والده العظيم .

الملك العادل نور الدين الزنكي :

واليوم كان نور الدين محمود سلطان الشام ، وكان يرى نفسه مأموراً من الله تعالى لدحر الصليبيين واستعادة بيت

المقدس ، ويعتبر ذلك أكبر عبادة وأعظم وسيلة للتقرب إلى الله ، وقد استقرت مهابته في جميع الولايات الصليبية لغاراته المتواصلة عليها .

وقد فتح في سنة ٥٥٩ هـ قلعة « حارم » التي كانت من قلاع الثغور الشمالية المنيعه ، وكان في جملة الأسرى صاحب « أنطاكية » والقمص صاحب « طرابلس » والدوك مقدم « الروم » و « ابن جوسلين » وغيرهم من كبار قوادهم ، والصليبيون في هذه المعركة بين قتلى يزيد عددهم على عشرة آلاف قتيل ، وبين أسرى لا يأتي عليهم العد والاحصاء . وفي نفس السنة فتح السلطان قلعة « بانياس » ، وكذلك استولى على مصر فحاصر الصليبيين من جهتين . يقول « لين بول » :

« إن سيطرة قائد نور الدين — سلطان الشام — (صلاح الدين) على النيل قد جعلت دولة القدس الصليبية بين شقي العصا ، فكانت تحت وطأة شديدة من ذلك ، ولم

(١) « الكامل » لابن الأثير (١٢٤/١١) .

يكن الذي يضغطها من كلا الجانبين إلا جيشين لنفس القوة ،
وبفضل استيلائهم على مرفأى دمياط والاسكندرية أخذوا
أسطولا بحرياً ، فقطعوا صلة الصليبيين المصريين بأوروبا ،
على كل حال فقد طرد السلطان الصليبيين — إلى حد
كبير — من جميع أنحاء منطقة فلسطين ، ولكن أحسن
أعماله ، وأعلى آماله ، وأحلى أمانيه ، كانت تتركز في
استعادة بيت المقدس من أيدي الصليبيين المحتلين ، ومن
يدري ! فان القدر المحتوم قد كتب هذه الكرامة لقائد
جيوشه السلطان صلاح الدين الأيوبي ، الذي هو بنفسه
خليق بأن يعتبر من حسنات نور الدين ومآثره . وتوفي
السلطان نور الدين في سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) في مرض
الحناق بالغاً من عمره ستاً وخمسين سنة ، وقد طرق نعي
السلطان — كما يصف المؤرخ الانجليزى — آذان المسلمين
كصاعقة سقطت عليهم من السماء ٢ .

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص ٨٩ .

(٢) « السلطان صلاح الدين » : ص ١١٥ .

اخلاق نور الدين ومحامده

وقد بالغ جميع المؤرخين المسلمين في الثناء على السلطان نور الدين محمود ، ووصفوه بالتقوى والأمانة والعدل وحسن الإدارة ، وكرم النفس ورقة الخلق ، وولوعه بالجهاد في سبيل الله ، فالسلطان — كاسمه — بمدوح عند جميعهم ومحمود .

يقول ابن الجوزي — وهو من معاصري السلطان — في تاريخه « المتظم » :

« جامد الثغور ، وانتزع من أيدي الكفار نيفا وخمسين مدينة ، وكانت سيرته أصلح من كثير من الولاة ، والطرق في أيامه آمنة ، والمحامد له كثيرة ، وكان يتدين بطاعة الخلافة ، وترك المكوس قبل موته ، وكان يميل إلى التواضع ، ومحبة العلماء وأهل الدين » .
ويصفه ابن خلكان — وهو معروف بأمانته التاريخية ، ودقته وتحفظه في اختيار الكلمات ، واقتصاده في الوصف

(١) « المتظم » لابن الجوزي .

والثناء — فيقول :

« كان ملكاً عادلاً زاهداً عابداً ورعاً متمسكاً بالشرعة ،
ماتلاً إلى الخير ، مجاهداً في سبيل الله تعالى ، كثير
الصدقات ، بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار . . وله
من المناقب والمآثر والمفاخر ما يستغرق الوصف »^١ .

ويتحدث عنه صاحب تاريخ الكامل — وهو المؤرخ
الكبير ابن الأثير الجزري — فيقول ما لا مزيد عليه
لمستزيد :

« وقد طالعت سير الملوك المتقدمين ، فلم أر فيها بعد
الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ،
ولا أكثر تحريماً منه العدل »^٢ .

وكان ابن الأثير عندما توفي السلطان في الرابعة عشرة
من سنه ، ولذلك فقوله جدير بأن يكون أكثر دقة وصحة ،
وأن ينم عن اطلاع ومعرفة .

(١) « وفيات الأعيان » ترجمة محمود نور الدين الزنكي .

(٢) « الكامل » : ١٦٤/١١ .

فيقول ابن الأثير وهو يصف سيرة السلطان ويشيد
بأخلاقه :

« كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في الذي
يخصه من ملك كان له ، قد اشتراء من سهمه من الغنيمة
ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، ولقد شكت إليه
زوجته من الضائقة فأعطاهما ثلاث دكاكين في حمص كانت
له ، يحصل له منها في السنة نحو العشرين ديناراً ، فلما
استقلتها قال : ليس لي إلا هذا ، وجميع ما بيدي أنا فيه
خازن للمسلمين ، لا أخونهم فيه ، ولا أخوض نار جهنم
لأجلك !! وكان يصلي كثيراً بالليل ، وله فيه أوراد حسنة .
« وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة ليس عنده
فيه تعصب ، وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر .

« وأما عدله فانه لم يترك في بلاده — على سعتها —
مكساً ولا عشراً ، بل أطلقها جميعها في مصر والشام
والجزيرة والموصل ، وكان يعظم الشريعة ، ويقف عند

أحكامها ، وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم ، فضى معه إليه ، وأرسل إلى القاضى كمال الدين ابن الشهرزورى يقول : قيد جنت محاكماً فاسلك معى ما تسلك مع الخصوم ، وظهر الحق له فوجه الخصم الذى أحضره ، وقال : اردت أن أترك له ما يدعيه ، إنما خفت أن يكون الباعث لى على ذلك الكبر والاتفة من الحضور إلى مجلس الشريعة ، فحضرت ، ثم وجهته ما يدعيه . وبني دار العدل فى بلاده ، وكان مجلس هو والقاضى فيها ينصف المظلوم - ولو أنه يهودى - من الظالم - ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده - . . .

وَأما شجاعته فإليها النهاية ، وكان فى الحرب يأخذ قوسين وترين ليقاتل بها ، فقال له القطب النشوى الفقيه : بالله عليك ، لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين ، فإن أصبت فى معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف ، فقال له نور الدين : ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ ! من قبل من حفظ البلاد والإسلام ؟ ذلك الله الذى لا إله إلا هو . ١١

« . . . وكان يكوم الظلم وأجل الدين ، ويعظمهم
 ويعطيهم ، ويقوم إليهم ، ويجلسهم معه ، وينسط معهم ،
 ولا يرد لهم قولاً ، ومكاتبهم بخط يده ، وكان وقوراً
 مهياً مع تواضعه . وبالجملة فحسانه كثيرة ، ومناقبه غزيرة ،
 لا يحتملها هذا الكتاب . »

ولوعه بالجهاد وقوة إيمانه بالله تعالى :

« وكان جل هم السلطان نور الدين منصرفاً إلى الجهاد
 ومحاربة الصليبيين ، فالجهاد شغله الشاغل وهوايته المحبة ،
 وكان يتمتع في ذلك بقسط وافر من الإيمان واليقين ،
 والعزم والاخلاص ، والتوكل على الله تعالى ، وبعمد
 الهمة والثقة بالنفس . »

« وفي سنة ٥٥٨ هـ انهزم نور الدين في معركة حصن
 الأكراد — وهي الواقعة المعروفة بالبقعة — لمباغثة الصليبيين ،
 وكان نازلاً بالقرب من حصن ، وكان بينه وبين العدو عدة
 فراسخ ، فقال للسلطان بعض من كان يمحض النصيحة له :

(١) . الكامل . : ١١٩/١١ .

ليس من الرأي أن يقيم السلطان مهنا والعدو المتصر جد
قريب ، فأسكته السلطان وقال :

« إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا أبالي بهم ،
ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الاسلام . »
وفرق السلطان الأموال في العسكر ، وأغدق عليهم
العطايا ، وقال له بعضهم : إن لك في بلادك إدارات
وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء وغيرهم ،
فلو استغنت بها في هذا الوقت لكان أصلح ، فغضب
السلطان من ذلك ، وقال :

« والله إنى لا أرجو النصر إلا بأولئك ، فقد جاء في
الحديث الشريف « إنما ترزقون وتنتصرون بضعفائكم » ، كيف
أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام
لا تخطئ ، وأصر فيها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رأيته
بسهام قد تصيب وقد تخطئ ، ومؤلاء القوم لهم نصيب في
بيت المال ، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم ؟ » .

وأخذ السلطان نور الدين في الاستعداد والتأهب
للجهاد والأخذ بثأره من الصليبيين الذين مزموه ، وأغدق
على العسكر الأموال والمنح والسلاح ، وأرسل إلى أصحاب
الأطراف وولاة الأمر في البلاد الإسلامية ، يحرضهم على
الجهاد في سبيل الله والانضمام إلى لوائه ، وكاتب زهادها
وعبادها ، وصلحاءها وقراءها ، يذكرهم ما لقي المسلمون من
الفرج ، يستمد منهم الدعاء ، ويطلب أن يحثوا المسلمين على
مكافحة الغزاة ، فقعده كل واحد من أولئك ومعه أصحابه
وأتباعه ، وهم يقرؤون كتب نور الدين ويدعون له
ويكونون^١ ، حتى ثار الناس للجهاد في سبيل الله ، ونفروا
خفافاً وثقالاً ، وجاء العدو بخيله ورجله ، وحده وحديده ،
وملوكه وفرسانه ، وقسوسه ورهبانه ، فحصى الوطيس ، وشبت
حرب شعواء ، وأوفى السلطان بنذره ، فهزم قوى العدو
الموحدة هزيمة نكراء ، واستولى على قلعة حارم ، وانتزعها
من أيدي الأعداء .

(١) « الكامل » : ١٢٢/١١ - ١٢٣ .

وَمَا يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ إِيمَانِ نَوْرِ الدِّينِ وَبِقِيَّتِهِ ، أَنَّ أَخَاهُ
 « نَصْرَةَ الدِّينِ » ، أَمِيرَ « أَمِيرَانِ » ، أَصَابَهُ سَهْمٌ فِي مُحَاصَرَةِ
 قَلْعَةٍ « بَانِيَّاسَ » ، فَأَذْهَبَ إِحْدَى عَيْنَيْهِ ، فَلَمَّا رَأَى
 نَوْرَ الدِّينِ قَالَ لَهُ : « يَا نَوْرُ الدِّينِ ، مَاذَا تَعْلَمُ
 » لَوْ كَشَفَ لَكَ عَنِ الْأَجْرِ الَّذِي أَعَدَّ لَكَ لَتَمَنَيْتَ
 ذَهَابَ الْآخَرَى (١) ، ١ .

(١) « الْكَامِلُ » : ١١ / ١٢٣ .

السلطان صلاح الدين

إن شخصية صلاح الدين الأيوبي معجزة كبيرة من معجزات الاسلام ، وآية باهرة من آيات صلاحيته وخلوده .

نشأ السلطان جندياً عريقاً وسليل أسرة كردية متوسطة ، ولم يكن في حساب أحد — قبل فتح مصر وحروبه ضد الصليبيين — أن هذا الشاب الكردي اليافع سيكون فاتحاً لبית المقدس ، وحارساً لأمانة الاسلام ، وذائداً عن حوزة العالم الاسلامي ومعيداً لمجد المسلمين وعزهم وكرامتهم ، ولم يكن يحسب أحد أنه قدرت له السعادة التي يفار عليها كبار الصلحاء والعباد وكرام المحاتد والاعراق ، وأنه يقوم بالعمل الجليل الذي يدخل على روح النبي العلية الغبطة والسرور .

يقول « لين بول » :

« ظل صلاح الدين مثلاً لامعاً للتقوى الذى يتسم بالصمت والهدوء الروحى ، ويحجب الطباع الكريمة من التلوث بالشوائب الخلقية ، ولما يأت يادرة تدل على أنه سوف يصبح رجلاً عملاقاً ، أو بطلاً من أبطال التاريخ » .
ولم يكن لما قبضه الله لهذا العمل العظيم هياً له الأسباب من لدنه ، فألح عليه ولى نعمته السلطان نور الدين ، وبعثه إلى مصر .

يقول القاضى بهاء الدين بن شداد أمين سر السلطان صلاح الدين فى كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » :

« ولقد قال لى السلطان — قدس الله روحه — :
كنت أكره الناس للخروج فى هذه الواقعة (يعنى الخروج إلى مصر) وما خرجت مع عمى^٢ باختيارى ، وهذا معنى قوله

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص : ٦٣ .

(٢) هو أسد الدين شيركوه الذى أرسله نور الدين محمود للاستيلاء على مصر .

سبحانه وتعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم »^١.

تحول في حياة صلاح الدين :

لما وصل صلاح الدين إلى مصر ، وخلال له الجو ، وأخذ
بزمam الحكم ، وقع تحول عظيم في حياته ، وتمكن في قلبه
أن الله تعالى قدر له عملاً جليلاً لا يلائم الترف والرفاهية
ونعومة الحياة ، يقول القاضي ابن شداد :

« وملك الرجال ، وهانت عنده الدنيا ، فملكها
وشكر نعمة الله عليه ، فتاب عما مضى ، وأعرض عن أسباب
اللهو ، وتقص بلباس الجدد والاجتماع ، وما عاد عنه ولا
ازداد إلا جداً إلى أن توفاه الله إلى رحمته »^٢.

ويؤيد ذلك ما يقوله المؤرخ النصراني :

« وأما بالنسبة لنفسه فإن صلاح الدين شدد في أمور
حياته ، وبالع في زهده وورعه اللذين كان يمتاز بهما من قبل
أيضاً ، وصرف نفسه عن رغد العيش ، وتجافى عن ملذات

(١) « النوادر السلطانية » : ص ٣١ .

(٢) « النوادر السلطانية » : ص ٣٢ - ٣٣ .

الحياة ، وضيق على نفسه في جميع شؤونه ، ليكون قدوة لرفاقه وزملائه ، واستفد جهده لتأسيس دولة إسلامية جبارة تتمتع بقدرة كاملة على إجلاء الكفار عن المملكة الإسلامية كلياً ، فقال مرة : إن الله لما أعطاني مصر حسبت أنه قدر لي فلسطين أيضاً . ومنذ ذلك الوقت لم تزل غاية حياته انتصاراً للإسلام ، وإظهاراً له على الدين كله ، وقد عاهد الله على محاربة الكفار والجهاد في سبيل الله إلى آخر حياته . .

شغفه بالجهاد وحنينه إلى الشهادة :

كان السلطان صلاح الدين ولوعاً بالجهاد ، كثير الاهتمام به ، فكان الجهاد عبادته ، ولذة عيشه ، وغذاء روحه ، وطيب نفسه ، يقول القاضي بهاء الدين بن شداد :
 « ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد امتولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً ، بحيث ما كان له حديث

(١) « السلطان صلاح الدين » ، ص : ١٨٦ .

إلا فيه ، ولا نظر إلا في آله ، ولا كان له اهتمام إلا
برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، ولقد
هجر في حجة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ، ووطنه
وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل
خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة .. وكان الرجل إذا
أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد .. ولو حلف حالف
أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا
في الجهاد أو في الأرفاد لصدق وبر في يمينه .

ويصور ابن شداد حنين السلطان إلى الجهاد وغرامه
به وتوجهه للإسلام ، فيقول :

« وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين ، وهو
كالوالدة الثكلى يحول بفرسه من طلب إلى طلب ، ويحث
الناس على الجهاد ، ولقد بلغنا أن الملك العادل حمل بنفسه
في ذلك اليوم مرتين ، والسلطان يطوف بين الأطلاب

(١) « النوادر السلطانية » : ص ١٦ — ١٧ .

بنفسه ، وينادى يا للإسلام ، وعيناه تذرفان بالدموع »^١ .
« ولم يطعم (فى معركة عكة) طعاماً البتة ، وإنما
شرب أقذاح مشروب ، كان يشير بها الطيب »^٢ .
« ولقد أخبرنى بعض أطبائه أنه بقى من يوم الجمعة
إلى يوم الأحد ، لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً
لفرط اهتمامه »^٣ .

معركة حطين الحاسمة :

وأخيراً ، وبعد حرب ومناوشات كثيرة ، وقعت المعركة
التي كانت معركة مصيرية حاسمة عبر التاريخ ، قضت على
دولة فلسطين الصليبية ، وقررت مصير الصليبيين المحتوم ،
وهى معركة حطين التي اندلعت فى يوم السبت ١٤ ربيع
الآخر ٥٨٣ هـ (٤ تموز ١١٨٧ م) وفتح الله للمسلمين
فيها فتحاً ميئاً .

(٢٠١) نفس المصدر : ص : ١٥٥ .

(٢) نفس المصدر : ص : ٩٠ .

يصور « لين بول » ميدان الحرب فيقول :

« أسر كبار قواد الجيش الصليبي وفرسانه ، وكان من جملة الأسرى « كاثي » ، صاحب « القدس » ، وأخوه « جاتيلان » ، و « ريجي نالد » ، صاحب « جنين » ، و « الهمغري » ، صاحب « تين » ، ومقدما الداوية والاستبار ، وغيرهم من رجالات الصليبيين ومقدميهم ، وكان سائر فرسان الصليبيين الفلسطينيين وشجعانهم تحت حراسة المسلمين ، ولم يسلم من الجند الصليبي فارس أو راجل إلا أسره المسلمون ، وقد رأوا أن شخصاً واحداً من المسلمين يذهب بثلاثين صليبياً ، أخذهم وحده ، مشدودين بطب (١) من أطاب خيمته ، وقد تكدست أجساد القتلى بين الصليبان والأعضاء المقطعة ، وتراكت كالصفائح والأحجار بعضها فوق بعض ، وأما هاماتهم المقطوعة فكانت متناثرة ككثير البطيخ في مزرعة ٢ » .

« وظل هذا الميدان الذي وقعت فيه معركة حطين

(١) الطب : الحبل الذي يربط بالوتد .

(٢) « السلطان صلاح الدين » : ص ١٨٧ — ١٨٨ .

الطاحنة - والذي يقال فيه أنه قتل فيه ثلاثون ألف رجل معروفاً لديهم ، وبعد عام من وقوع المعركة كانت أكوام العظام البيضاء تلوح للناس من بعيد ، وكان ما تركه الوحوش من قطع الأشلاء منتشراً هنا وهناك .

غيرة السلطان الدينية :

سيسجل قلم التاريخ باعجاب وإكبار - مع هذا الفتح المبين - تلك القصة التي تدل على قوة إيمان السلطان صلاح الدين وغيره الدينية المتأججة ، فلندع المؤرخ الانجلايزي يتحفنا بحكاية هذه القصة التي تشعل مجامر القلوب ، وتشحنها بالايمان واليقين ، وتثير كامن الغيرة في نفوس المسلمين :

« أمر السلطان صلاح الدين فضربت خيمته في ميدان القتال ، واستحضر الأسرى ، فجئى بالملك « كاثي » و « ريجي نالد » و « جاتيلان » صاحب « جنين » كليهما ، فأجلس السلطان الملك بجانبه ، ولما رآه في أشد حال من

(١) نفس المصدر ١ ص ١٨٩ .

العطش قدم إليه قدحاً من الماء المثلج فشرب منه الملك ،
وناول بعضه « ريجي نالد » ، « حاكم كرك » ، فكره السلطان
ذلك وقال للترجمان : قل للملك : أنت الذى سقيته وأما أنا
فما سقيته ، وأنا إذا قدمنا إلى أحد رغيماً أو ملحاً أمن
بذلك ، ولن يفلت هذا الرجل من غضبي ونقمتي ، ثم لم
يلبث أن قام إلى « ريجي نالد » الذى كان لم يزل واقفاً على
رجليه منذ دخل الخيمة ، فقال له السلطان : ألا إنى نذرت
قتلك مرتين : مرة حينما كنت أردت الزحف على الحرمين
الشريفين ، وأخرى حينما هجمت على قافلة الحجاج وغدرت
مهمي ، وما أنا ذا أتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم على غدرك واستخفافك
بالمقدسات ، قال ذلك وسل سيفه ، وضرب عنق « ريجي نالد »
بيده وفاء لنذرته ، وقضى الحرس على مابقى فيه من رمق ،
ولما رأى الملك « كاتى » عاقبة صاحبه المريعة فزع واستشعر

(١) وأضاف إلى ذلك ابن شداد : « أنه لما غدر بالقافلة ناشدوا الله
والصلح الذى بينه وبين المسلمين ، فقال : « قولوا لمحمد كم يخلصكم » فلما
بلغه رحمه الله ذلك عنه نذر أنه متى أظهره الله به قتله بنفسه » ص : ١٢٧ .

الخوف ، ولم يشك أنه سيثني به ، فطيب السلطان نفسه ،
وقال : ليس من عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا
فانه نفض العهد مرة بعد مرة فجري ما جرى ^١ .

ويقول ابن شداد :

« واستحضر العزس « أرناط » وأوقفه على ما قال ،
وقال له : ها أنا أتصريحاً عليك الصلاة والسلام ، ثم
عرض عليه الاسلام فلم يفعل ^٢ . »

فتح بيت المقدس :

وبعد معركة حطين سرعان ما حانت الساعة المباركة
التي كان يتلهم لها السلطان ، ويسمو إليها ويهفو منذ
أعوام طوال ، وهو فتح بيت المقدس ، يقول القاضي
ابن شداد :

« وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص ١٨٨ .

(٢) « النوادر السلطانية » ص ٦٤ .

وفي ٢٧ رجب من نفس السنة دخل السلطان بيت المقدس ، وبعد تسعين سنة عادت هذه القبة الأولى - التي صلى فيها محمد ﷺ بالأنبياء عليهم السلام في ليلة الاسراء - إلى حضانة الاسلام ووصاية المسلمين ، وكان من حسن الصدفة أن السلطان دخل بيت المقدس في نفس التاريخ الذي أكرم الله فيه النبي ﷺ بالمعراج .

يقول ابن شداد :

« وكان فتحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الحرف والطرق ، وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل وشاع قصده القدس ، قصده العلماء من مصر ومن الشام ، بحيث لم يتخلف معروف من الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وخطب فيه ، وصليت فيه الجمعة يوم فتحه ، وحط الصليب الذي كان على قمة الصخرة وكان شكلاً عظيماً ،

(١) للخواطر السلطانية : ص : ٢١٣ .

ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر^١ .

وكان السلطان نور الدين الزنكي رحمه الله قد صنع
منبر بيت المقدس ، واهتم به اهتماماً كبيراً ، وتحمل في سبيله
تكاليف باهظة ، رجاء أن يعيد الله بيت المقدس إلى أيدي
المسلمين فينصب المنبر فيه ، فطلبه السلطان صلاح الدين ،
ونصبه في المسجد الأقصى^٢ .

من روائع « الخلق العظيم » :

وأخلق بنا أن نسمع بلسان المؤرخ النصراني ما ضرب
به السلطان صلاح الدين الأيوبي في ذلك اليوم من أروع
مثل للخلق الاسلامي العظيم ، من كرم الجائع ، ورحابة
الصدر ، وسماحة النفس :

« لم يظهر في يوم من الأيام من مروءة السلطان وبعد
همته وكرم طبيعته ما ظهر يوم تسلم المسلمون مقاليد « بيت
المقدس » فتولى جنده وعماله أمر البلد ، وكانوا يمنعون

(١) « النوادر السلطانية » : ص ٦٦ .

(٢) راجع تاريخ أبي الفداء الحموي .

الناس عن أى عدوان وعسف ، فلم يصب أحداً من الصليبيين
أذى ، وكان حرس الملك يحرسون جميع شوارع البلد الخارجية ،
وكان على باب داود أحد العمال الأمناء ، ليأذن لكل من
أدى الفدية من أهالى البلد بالخروج منه .

ويذكر المؤرخ بعد ذلك أن أخا السلطان (العادل)
والبطريق وباليان أطلقوا آلافاً من الأرقاء ، ثم يقول :

« ثم قال صلاح الدين لقواده : تصدق أخى عن
نفسه ، وتصدق باليان والبطريق كل عن نفسه ، والآن أتصدق
أنا عن نفسى ، فلم يلبث أن أمر جنده لينادوا فى جميع
طرقات البلد وأزقته بإطلاق سراح الشيوخ والضعفاء
الذين لا يطيقون أداء الفدية فيذهبوا حيثما شأؤوا ، فبدأوا
يخرجون من باب « أليعازر » ، وما زالت تخرج جماعاتهم
منذ طلوع الشمس إلى غروبها ، وذلك ما تصدق به
صلاح الدين على فقراء ومساكين يتجاوز عددهم الحصر .

وبالجملة فإن صلاح الدين حفر هذه المدينة التى

(١) . السلطان صلاح الدين .

فتحها وانتزعها من أيدي الصليبيين بعطفه وكرمه ، ومروته
وسماحته ، مما يذكرنا بما فعله الصليبيون، الأول يوم فتحوا
« بيت المقدس » سنة ١٠٩٩ م من أفاعيل الهمجية النادرة
البشعة ، يوم مر « غودجر » و « تكرد » بأسواق
بيت المقدس وشوارعها فرآما مليئة بالآشلاء ، وكان الجرحى
يشنون ويصرخون ويتألمون ويستغيثون ، وقد بلغت أنفسهم
التراقي ولم يبق فيهم إلا الذماء ، يوم أحرقوا المسلمين
الآبرياء ، وعذبوهم بأبشع ألوان العذاب والتكيل ، وقد لجأ
عدد من المسلمين إلى سقوف القدس وأبراجه ، فرشقهم
هؤلاء الصليبيون الغاشمون بسهامهم وأسقطوهم إلى الأرض ،
وقد مزقت هذه المجزرة التي قاموا بها سرايل كرامة العالم
النصراني ، وسود ما اعتسفوه من جور وعدوان واضطهاد
وآثام وجه هذا البلد الطاهر المقدس ، حيث ألقى المسيح
دروس الحب والعطف وقال :

طوبى للراحمين العاطفين الذين تنزل عليهم رحمة الله
وبركاته .

وقد تناسى هؤلاء الصليبيون كلام المسيح عندما كانوا يحولون هذه الأرض المقدسة إلى مذابح للسليين المنكوبين ، أفلم يكن من سعادة هؤلاء الصليبيين القساة أن صلاح الدين شملهم بعطفه ورحمته ؟ !

والرحمة من أعظم صفات الله ، فهي تاج العدل وجلاله ، فأينما استطاع العدل وحق له أن يقتل نفساً ، استطاعت الرحمة أن تنقذها وتحببها .

ولو لم يذكر الدهر من مكارم السلطان صلاح الدين وجلائل أعماله إلا أنه كيف استعاد « بيت المقدس » ، لكانت تكفي هذه المكرمة وحدها للدلالة على أنه لم يكن - في مروءته وشهامته وبعد همته وكرامته - وحيد عصره وفريد دهره ، بل كان رجلاً وحيد العصور والأجيال كلها .

التيار الصليبي الجارف :

وللمرة الأخرى ثارت ثائرة أوروبا بعد فتح « بيت المقدس » وهزيمة « حطين » ، المخزية وفشل الصليبيين الذريع ،

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص : ٢٠٢ - ٢٠٥ .

فكالت أوروبا بأسرها على بلد صغير مثل الشام بجنودها
المجندة وملوكها الكبار وفرسانها البواسل وقوادها الشجعان ،
مثل « قيصر » و « فريديك » و « رتشرد قلب الأسد »
وملوك إنجلترا وفرنسا وصقلية والنمسا وبوغندي وفلاندرز
وأمرائها ، ولم يقم في وجههم إلا السلطان صلاح الدين
وأقاربه وعدة من خلفائه ، يناخون عن الاسلام ، ويحمون
ذمار المسلمين ، ويقاتلون عن العالم الاسلامي كله .

الصلح وإنجاز العمل وإكماله :

وأخيراً ، تم الصلح بين الفريقين اللذين قد نالت منها
الحروب الدامية المتواصلة التي دامت خمسة أعوام نيلاً كبيراً
في « الرملة » ، سنة ١١٩٢ م ، وبقي « بيت المقدس » والمدن
والقلاع التي فتحها المسلمون تحت أيديهم إلا ولاية « عكة »
الصغيرة التي يحكمها الصليبيون ، وظل صلاح الدين سلطان
سائر البلاد وصاحب الأمر والنهي فيها ، وتم على يده
العمل الذي تولى مسؤولية إنجازه ، وبعبارة أصح : الذي
قيضه الله له وفوضه إليه .

يتحدث المؤرخ النصراني عن انتصار السلطان ، وانتهاء
سلسلة الحروب الصليبية المشؤومة ، فيقول :

« وضعت الحرب المقدسة أوزارها ، وخمدت نيران
الحروب التي استغرقت خمسة أعوام متتابعة ، ولم يكن
المسلمون يملكون قبل فتح حطين في تموز سنة ١١٨٧ م بوصة
من الأرض في غربى نهر الأردن ، وأما يوم جرت الهدنة
برملة في أيلول ١١٩٢ م فكان ما بين صور وبيافا كله تحت
أيدى المسلمين إلا رقعة صغيرة على الساحل ، ولم يكن في
الهدنة شيء ينجل صلاح الدين البتة ، ولا شك أنه بقي
معظم ما أخذه الصليبيون تحت يد الافرنج ، ولكن النتيجة
بالنسبة لهم كانت ضئيلة جداً إذا نظرنا إلى ما استهلكته الحروب
من نفوسهم ونفائسهم فحسب ، ولم يستجد « بطريق » روما ،
إلا رفع سائر العالم النصراني سلاحه وخاض المهمة ، واستفرغ
الجهود كل من « قيصر » و « فريدريك » و ملوك إنجلترا
وفرنسا وصقلية ، و « ليوبولد » صاحب النمسا و « ديوك »
صاحب بوغندي ، و « كاونت » صاحب فلاندرز ، وملك

« بيت المقدس » الصليبي وغيره من الصليبيين الفلسطينيين ،
وكبار فرسان داويه والاستبار ، ومات عدد من ملوك وقواد
وأمرأ كافة الأمم النصرانية ، عسى أن يملكوا بيت المقدس
ويفلحوا في إنقاذ دولة « بيت المقدس » الصليبية التي
قد أشرفت على الانهيار ، وقد تمنوا أن تورق دوحة آمالهم
مرة أخرى ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ .

ملك قيصر « فريدريك » في هذه الاثناء ، وارتحل
ملوك إفريقيا وفرنسا إلى بلادهم ، وثوى في ثرى « بيت
المقدس » أعز أصدقائهم وكبار أصحابهم وجلة أشرافهم ، ولم
يزل « بيت المقدس » في يد صلاح الدين رغم أنوفهم ، اللهم
إلا دويلة على ساحل « عكة » ، كان يحكمها ملكها الصليبي
المزعوم .

« وفي الحرب الصليبية الثالثة تداعى العالم النصراني
وجند طاقاته وأجلب على صلاح الدين ، ولكنهم لقوا منه
صخرة صماء استعصت على الرجال وأعيانهم انصداعها ، وأما
جنود السلطان فقد أنهكهم ما لم يزالوا يعانونه من جهد مرير

وتعب متواصل وعناء رتيب وعمل خطير غير مأمون منذ
أعوام وشهور طوال ، ولكنهم مع ذلك لم ينبسوا بمنت
شفة في شكوى مما أصابهم ، ولم يعص أحد السلطان في
الحضور عند طلبه وعرض نفسه في سبيل هذا العمل الصالح ،
وربما يكون قد وقع شيء في قلوب ولاية الدولة الخاضعين
للسلطان في الوديان النازحة لهر دجلة لطلب السلطان الدائم
للدد ، ولكنهم على كل حال جاؤوا بجنودهم عند السلطان
بكل حماس وإخلاص ، وقد حاربت أفواج الموصل في
المعركة الأخيرة التي وقعت في « أرسوف » بشجاعة نادرة
وحاسة منقطعة النظير ، ولم يزل السلطان في هذه الحروب
كلها على ثقة من جيوش مصر والعراق ، تمدد وتمعزده
وتسانده كلما احتاج إليها ، وكذلك عززه الجنود الشمالية
والمركزية لبلاد الشام دائماً ، فكان العرب والمصريون
والأكراد والأتراك كلهم خدماً طائعين للسلطان ، والمسلمين ،
والحق أنهم سارعوا إلى الحضور كلما طلبهم السلطان ، كأنهم
خدم له فعلاً ، وقد جمعهم السلطان على اختلاف ألوانهم

وسلااتهم وعناصرهم وعلى ما كان بينهم من منافرات قبلية ، ومفاخرات ومخاصمات قومية ، كأن الجنود كلهم جسد واحد ، وكل منهم ينتمى إلى عسكر واحد ، ولا شك أن السلطان واجه مرة أو مرتين عقبات في سبيل جمعهم تحت لواء واحد ، وعان في بعض الأحيان اختلافاً كبيراً في طبائعهم ، ومن هذه المواقف الدقيقة تمرد الجند في يافا ، ولكن مع ذلك ظلت هذه الجنود التي تنتمى إلى عناصر وأجيال شتى متحدة وخاضعة للسلطان إلى فصل الحريف سنة ١١٩٢ م ، ومنذ أن طلبهم السلطان لأول مرة في سنة ١١٨٧ م ، ظلت تجاهد في سبيل الله إلى نهاية الأمر ، وفي هذه الفترة كلها لم تخرج عليه ولاية من ولاياته ، ولم يتمرد أحد من قواده وعماله ، ولو أنهم — بحكم ما علق عليهم من الآمال الجسام نظراً إلى قوتهم وإخلاصهم ومصابرتهم — كان في وسعهم أن يهزموا القوى الأجنبية ويزلزلوا دعائمها ، مهما بلغت عقائدها وقيادتها من العز والصلابة والمنعة وصلاحية الدفاع والبقاء ، وإذا لم نجد عبر الفترة كلها إلا استثناء واحداً وهو تنصل

أحد أقارب السلطان منه (وأصلح الأمر بالصفح عنه فيما
بعد) عرفنا مدى ما كان يتمتع السلطان به من نفوذ عجيب
في رعيته ، ومهابة غريبة تمكنت في قلوب الناس مع حب
وتقدير له ، وكان ولا يزال السلطان وحده يملك الأمر من
جبال كردستان إلى صحراء نوبة بعد انتهاء المحن والشدائد التي
جرتها الحروب المتواصلة أيضاً ، وهؤلاء — ملك كردستان
و « كاتلين » صاحب أرمينية وسلطان قونية وقصر
قسطنطينية — كلهم يحجون من وراء الحدود أن يعتبرهم
السلطان أنصاراً له وأحلفاً ، ولكن لم يطق السلطان عنقه
بمنة أحد من هؤلاء الأنصار و « الاتحاديين » ، فلم يساعده
قط ، وإنما حضروا إليه ليهنئوه بما أحرزه من النجاح في
الصراع الذي خاضه السلطان صلاح الدين وحده .

« ولا يمكن أن يقال في أحد من قواد السلطان —
الذي كان يستشيرهم — أنه استأثر بالأمر لدى السلطان :
إلا ما كان في آخر حياته من أمر أخيه العادل ، نعم قد
نظم السلطان مجلساً يشير عليه في أمور الحرب وغلب رأيه

الخطأى — فى بعض الأحيان — على رأى السلطان مع
 صحتة وسداده كما وقع فى « صور » و « عكة » ولكن
 لا يمكن لأحد أن يدل على عضو من أعضاء هذا المجلس
 كان لرأيه فى نفس السلطان تأثير أكثر من رأى غيره ،
 وإن إخوته وأبناءه وأبناء إخوته وزملاء القدماء وعماله الجدد
 والقضاة العقلاء والوزراء المتحفظين والثقات الأوفياء والوعاظ
 المتعصبين والعلماء الكبار كلهم أجمعوا على الجهاد ، وساهموا
 فيه بالفعل ، ولم يألوا جهداً فى النصح لمولاهم وتعزيزه ، كل
 حسب قوته وكفاءته ، وهل كان فيهم أحد ممن نسى أميرهم
 ومولاهم ١٩ ، .

« وهل كان فى مثل هذا الموقف الحرج والمأزق المتلاحم
 الذى يشوش الفكر ويشنت البال ويجهد النفس إلا قلب
 واحد غلاب تمكن من جميع القلوب ، وإلا إرادة واحدة
 جبارة قهرت سائر النفوس ، وكانت هذه الإرادة إرادة
 السلطان صلاح الدين وذلك القلب قلبه » .

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص : ٣١٠ - ٣١٢ .

وبعد ما قام بواجبه المقدس أحسن قيام ، وحصن
العالم الاسلامي من خطر الصليبيين ، استأثر الله بآبائه الاسلام
البار في ٢٨ من صفر ٥٨٩ هـ وهو في السابعة والخمسين
من عمره .

ويتحدث القاضي ابن شداد عن وفاة السلطان ، فيقول :
« ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر
— وهي الثانية عشرة من مرضه — اشتد مرضه وضعفت
قوته ، ووقع في أوائل الأمر من أول الليل ، وحال بيننا
وبينه النساء ، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل تلك الليلة
وابن الزكي ، ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت ، وحضر
بيننا الملك الأفضل ، وأمر أن نبيت عنده ، فلم ير القاضي
الفاضل ذلك رآياً ، فان الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون
نزولنا من القلعة ، تخاف إن لم نزل أن يقع الصوت في
البلد ، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً ، فرأى المصلحة في

(١) صرح ابن كثير أن السلطان ولد في سنة ٥٣٢ هـ .

نزولنا ، واستحضر الشيخ أبي جعفر إمام « الكلاسة » - وهو رجل صالح - ليبيت بالقلعة ، حتى إذا احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء ، وذكره الشهادة ، وذكره الله تعالى ، ففعل ، ونزلنا ، وكل منا يود فداءه بنفسه ، وبات في تلك الليلة - رحمة الله عليه - على حال المتقلين إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ، ويذكره الله تعالى ، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع ، لا يكاد يفيق إلا في أحيان .

« ولقد حكى لي لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى : « لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه . »

« وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسعة وثمانين وخمسة » .
« وكان يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلم إلا الله تعالى ، وبالله لقد كنت أسمع من

بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص إلا في ذلك اليوم ، فاني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس ١ . . .

ويقول ابن شداد :

« إن السلطان لم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية ، وجرماً واحداً ذهباً ، ولم يخلف ملكاً ، ولا داراً ، ولا عقاراً ، ولا بستاناً ، ولا قرية ، ولا مزرعة ، ولا شيئاً من أنواع الأملاك ٢ . . . »

« وما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى في ثمن التبن الذي بليت به الطين . . . »
« وجميع ما احتاج اليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه ٣ . . . »

(١) النوادر السلطانية ، : ص : ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٢) نفس المصدر : ص ٦ .

(٣) « النوادر السلطانية » : ص ٢٥١ .

ويتحدث القاضي ابن شداد عن سيرة السلطان وخلاله وأخلاقه ومزاياه فيقول :

« وكان — رحمة الله عليه — حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء . »

« وأما الصلاة فكان — رحمه الله تعالى — شديد المواظبة عليها بالجماعة ، حتى أنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلى إلا جماعة ، وكان إن مرض يستدعى الإمام وحده ، ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة ، وكان يواظب على السنن الرواتب ، وكان له صلوات يصلها إذا استيقظ في الليل ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح (على مذهب الشافعية) ، ولقد رأيت — قدس الله روحه — يصلي في مرضه الذي مات فيه قائماً ، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه . »

« وأما الزكاة فإنه مات — رحمه الله تعالى — ولم يحفظ

ما تجب عليه به الزكاة ، وأما صدقة النفل ، فإنها استغرقت
جميع ما ملكه من الأموال . . (ولم يخلف شيئاً من
الأموال كما نقلنا عن ابن شداد فيما سبق) .

« وأما صوم رمضان فإنه كان عليه من فوائت بسبب
أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة ، وكان القاضى
الفاضل قد تولى ثبت تلك الأيام . . . ومع كون الصوم
لا يوافق مزاجه ألهمه الله تعالى الصوم وأقدره على ما قضاء
من تلك الفوائت ، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي
يصومها ، لأن القاضى كان غائباً ، وكان الطيب يلومه ،
وهو لا يسمع ، ويقول : لا أعلم ما يكون ، فكأنه كان
ملهماً ما يراد به رحمه الله تعالى . »

« وأما الحج فإنه كان لم يزل عازماً عليه وناوياً له في
العام الذى توفى فيه ، فإنه صمم العزم عليه ، وأمر بالتأهب ،
وعملنا الرفادة ، ولم يبق إلا المسير ، فاعتاق عن ذلك بسبب
ضيق الوقت وخلو اليد عما يليق بأمثاله ، فأخر إلى العام
المستقبل فقتضى الله ما قضى . »

« وكان — رحمه الله تعالى — يحب سماع القرآن العظيم . . . وكان يستقرئ من يحرسه في الليل — وهو في برجه — الجزأين والثلاثة والأربعة وهو يسمع ، وكان - رحمه الله تعالى - خاشع القلب رقيقه ، غزير الدمعة إذا سمع القرآن ، يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته . »

« وكان — رحمه الله — شديد الرغبة في سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإنه إن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومما ليكم المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالا له ، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه ، وكان — رحمه الله — يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرني في خلوته ، ويحضر شيئا من كتب الحديث ، ويقرأها هو ، فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ، ودمعت عينه . »

• وكان — رحمه الله — كثير التعظيم لشعائر الدين ..
ولقد أمر صاحب حلب الملك الظاهر — أعز الله أنصاره —
بقتل شاب يقال له : السهروردي ، قيل عنه إنه كان معانداً
للشرائع مبطلاً .

• وكان — قدس الله روحه — حسن الظن بالله ،
كثير الاعتماد عليه ، عظيم الانابة إليه ، ولقد شاهدت من
آثار ذلك ما أحكيه ، وذلك أن الفرنج — خذلهم الله —
كانوا نازلين ببית نوبة ، وهو موضع قريب من القدس
الشريف — حرمها الله تعالى — بينهما بعض مرحلة ، وكان
السلطان بالقدس ، وقد أقام يزكا على العدو محيطاً به ،
وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين ، فتواصلت الأخبار بقوة
عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرتها ، وتركيب القنابل
عليه ، واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر
الأمراء وعرفهم ما قد دهم المسلمين من الشدة ، وشاورهم في
الاقامة بالقدس ، فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها ، وأصر

(١) اليك : لفظ فارسي معناه طلائع الجيش .

الجميع على أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه ، فانها مخاطرة
بالاسلام ، وذكروا أنهم يقيمون هم ، ويخرج هو — رحمه
الله — بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال
بعكة ، ويكون هو ومن معه يصدد منع ميرتهم والتضييق
عليهم ، ويكونون هم يصدد حفظ البلد والدفع عنه ، وانفصل
مجلس المشورة على ذلك ، وهو مصر على أن يقيم هو
بنفسه ، علماً منه أنه إن لم يقيم لم يقيم أحد ، فلما انصرف
الامراء إلى بيوتهم جاء من عندهم من أخبر أنهم لا يقيمون
إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده ، حتى يكون
هو الحاكم عليهم والذي يأترون بأمره ، فعلم أن هذه إشارة
منهم إلى عدم الإقامة ، وضاق صدره ، وتقسم فكره ،
واشتدت فكرته . .

« ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة — وكانت
ليلة الجمعة — من أول الليل إلى أن قارب الصبح ، وكان
الزمان شتاء ، وليس معنا ثالث إلا الله ، ونحن نقسم
أقساماً ، ونرتب على كل قسم بمقتضاه حتى أخذني الاشفاق

عليه والخوف على مزاجه ، فانه كان يغلب عليه اليأس ،
 فشفت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة ، فقال - رحمه
 الله - لعلك جاءك النوم ، ثم نهض ، فما وصلت إلى يتي
 وأخذت لبعض شأني إلا وأذن المؤذن ، وطلع الصبح
 وكنت أصلي معه الصبح في معظم الاوقات ، فدخلت عليه
 وهو يرم الماء على أطرافه ، فقال : ما أخذني النوم أصلا ،
 فقلت : قد علمت ، فقال : من أين ؟ فقلت : لأني ما
 نمت ، وما بقي وقت للنوم . ثم اشتغلنا بالصلاة ، وجلسنا
 على ما كنا عليه ، فقلت له : قد وقع لي واقع ، وأظنه
 مفيدا إن شاء الله تعالى ، فقال : وما هو ؟ فقلت له :
 الاخلاص إلى الله تعالى ، والالابة إليه ، والاعتماد في كشف
 هذه الغمة عليه ، فقال : وكيف نصنع ؟ فقلت : اليوم الجمعة ،
 يغتسل المولى عند الرواح ويصلي على العادة بالأقصى موضع
 مسرى النبي ﷺ ، ويقدم المولى التصديق بشيء خفية على
 يد من يثق به ، ويصلي المولى ركعتين بين الأذان والاقامة
 ويدعو الله في سجوده ، فقد ورد فيه حديث صحيح ، وتقول

في باطنك : إلهي قد انقطعت أسباب الأرضية في نصرة
 دينك ، ولم يبق إلا الاخلاص إليك والاعتصام بحبك
 والاعتماد على فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل — فان الله
 أكرم من أن يخيب قصدك ، ففعل ذلك كله ، وصليت
 إلى جانبه على العادة ، وصلى الركعتين بين الأذان والاقامة ،
 ورأيت ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ، ثم على سجاداته ،
 ولا أسمع ما يقول ، فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت
 رقعة من « عز الدين جرديك » ، وكان على اليزك يخبر فيها
 أن الفرنج محتبسون ، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى
 الصحراء ووقفوا إلى قائم الظهيرة ، ثم عادوا إلى خيامهم ،
 وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية يخبر عنه بمثل ذلك ،
 ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا .. ولما
 كانت بكرة الاثنين جاء البشير يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى
 جهة الرملة ، ١ .

(١) « التوادر السلطانية » ص ٦ - ١٠ .

وكان السلطان مع زهده وورعه ونقاء جيبه يتحلى
بالعدل والعفو ، والحلم والجود ، والمروءة والكرم ، والصبر
والصرامة ، والثبات والاستقامة ، وغيرها من مكارم الأخلاق
ومحاسن الأوصاف ، يقول ابن شداد :

« وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في
مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب
للتحاكيم حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير ، وعجوز
هرمة وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سافراً وحضراً ، على أنه
كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص
في كل يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يرد قاصداً للحوادث
والحكومات ، وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل
أو النهار ، ويوقع على كل قصة بما يحريه الله على قلبه ،
ولم يرد قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة ، وهو مع
ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه . .
وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف

ظلامته واعتنى بقصته ، ولقد رأيته واستغاث إليه إنسان من
أهل دمشق يقال له : ابن زهير ، على « تقي الدين » ابن
أخيه ، فأنفذ إليه ليحضر إلى مجلس الحكم ، وكان « تقي الدين »
من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يجابه في
الحق « ١ » .

وكان السلطان ذاحم أصيل وتؤدة ، وقد روى
المؤرخون قصصاً من قوة احتماله ، وشدة حلمه ، وصبره على
الأذى ، وإحسانه إلى من أساء إليه ، لو رويت عن أوساط
الناس لكانت موضع الدهشة والاستغراب ، فكيف من ملك
قاهر ، وسلطان قوى !! وقد طلب مرة ماما للشرب ، وتأخر
إحضاره فكرر الطلب ولم يحضر ، حتى اتفق ذلك خمس
مرات ولم يحضر ، فلم يزد على أن قال : إخواني إني أموت
عطشاً ! فأحضر وشربه السلطان ، ولم يلم أحداً على تأخيره ،
وأبل من مرض طال به ، ودخل الحمام ليستحم ، فوجد
الماء شديد السخونة ، فطلب ماما بارداً ، فأحضر الخادم الماء ،

(١) « النوادر السلطانية » : ص ١١ .

ووقع عليه الاتهام الذى فيه ، ولم ينبج من الموت إلا بلطف
من الله ، فما زاد أن قال : إذا كنتم تنوون قتلى فأخبروني
بذلك ، واعتذر الخادم وسكت السلطان ، وذكر القاضى ابن
شداد أخباراً كثيرة من صفحه عن الأمراء ، وسعة صدره
وحلمه^١ .

وقد سجل القاضى بهاء الدين قصصاً عديدة للسلطان
فى عفوه وحلمه ، وصفحه عن أخطاء جنوده وزلات أصحابه^٢ .
وأما فى جوده وسخائه : فكان السلطان رحمه الله - كما
صرح به ابن شداد - : « ربما يهب الأقاليم ، وفتح « آمد » ،
وطلبها منه ابن قره أرسلان فأعطاه إياها ، ورأيته قد اجتمع
عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على
التوجه إلى دمشق ، ولم يكن فى الخزانة ما يعطى الوفود ،
فلم أزل أخاطبه فى معانهم حتى باع أشياء من بيت المال
وفضضنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل منه درهم واحد . . . وكان

(١) راجع « النوادر السلطانية » ، وما ألف فى أخباره .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ٢١ — ٢٤ .

نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم
 مهم لعلهم بأنه متى علم به أخرجه ، وسمعت في معرض
 حديث جرى يقول : يمكن أن يكون في الناس من ينظر
 إلى المال كما ينظر إلى التراب ، فكأنه أراد بذلك نفسه
 — رحمه الله تعالى — ١ .

ويقول ابن شداد في موضع آخر :

« وكان السلطان كثير المروءة ، ندى اليد ، كثير الحياء ،
 مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف ، وكان يكرم الوافد
 عليه ، وإن كان كافراً . . . ولقد رأيته وقد دخل عليه
 صاحب « صيدا » بالناصره فاحترمه وأكرمه ، وأكل معه
 الطعام ، ومع ذلك عرض عليه الاسلام ، فذكر له طرفاً من
 محاسنه وحشه عليه » ٢ .

« وكان السلطان كريم النفس رقيق القلب ، يتوجع
 للظلم ويرثي له ، ويجبر مصابه ، يدل على هذا ما يحكى ابن

(١) نفس المصدر ص ١٣ — ١٤ .

(٢) « النوادر السلطانية » : ص ٢٤ .

شداد في كتابه فيقول :

« ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة
الافرنج ، وقد وصل بعض اليزكية ، ومعه امرأة شديدة
التخوف ، كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها ، فقال
اليزكي : إن هذه خرجت من عند الافرنج فسألت الحضور
بين يديك ، وقد أتينا بها ، فأمر الترجمان أن يسألها عن
قصتها ، فقالت : اللصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمتي
وسرقوا ابنتي ، وبت البارحة أستغيث إلى بكرة النهار ،
فقال لي المملوك : السلطان هو أرحم ، ونحن نخرجك إليه
تطلين ابنتك منه ، فأخرجوني إليك ، وما أعرف ابنتي إلا
منك ، فرق لها ودمعت عينه ، وحركته مروءته ، وأمر من
ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها
ويدفع له ثمنها ويحضرها ، وكان قد عرف قصيتها من بكرة
يومه ، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على
كتفه ، فما كان إلا أن وقع نظرها عليه ، فخرت إلى الأرض
تعفر وجهها في التراب ، والناس يكون على ما نالها ، وهي

ترفع طرفها إلى السماء ولا نعلم ما تقول ، فسلمت أبتها إليها
وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم ، ،
ويقول ابن شداد :

« إنه ما أحضر بين يديه يتيم إلا ترحم على مخلقيه
وجبر قلبه ، وأعطاه وجبر مصابه ، وإن كان له من أهله كبير
يعتمد سلمه إليه ، وإلا أتى له من الخير ما يكف حاجته
وسله إلى من يعنى بتربيته ويكفلها ، وكان لا يرى شيخاً
إلا يرق له ويعطيه ويحسن إليه » ،

خلال الفتوة والفروسية :

وبدل على صبره واستقامته في الشدائد والأهوال ما
حكى عنه القاضي بهاء الدين ، فقال : إنه رآه بمرج عكة
« وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دما ميل كانت
ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه ، بحيث لا يستطيع الجلوس ،
ولأنما يكون منكباً على جانبه إن كان بالخيمة ، وامتنع من

(١) « التوادر السلطانية » ، : ص ٢٦ .

(٢) « التوادر السلطانية » ، : ص ٢٨ .

مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو ، وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلباً بغية القتال ، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة المغرب يطوف على الأطلاب ، صابراً على شدة الألم وقوة ضربان الدماميل ، وأنا أتعجب من ذلك فيقول : إذا ركبت يزول عني ألماً حتى أنزل !! وهذه عناية ربانية .

ولم يزل يطارد العدو في معركة - وهو في حالة المرض - إلى أن دخل الليل فضربت له خيمة لطيفة ، يقول القاضي ابن شداد :

« وبتنا تلك الليلة أجمع ، أنا والطبيب نمرضه ونشأغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى ، حتى لاح الصباح ، ثم ضرب البوق وركب هو وركبت العساكر ، وأحدثت بالعدو ، ورحل العدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر ، وضايقتهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة ، وفي ذلك

(١) نفس المصدر : ص ١٨ .

اليوم قدم أولاده بين يديه احتساباً وجميع من حضر منهم ،
ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب . .
وبقي - رحمه الله - في مرضه والعساكر على ظهور الخيل قبالة
العدو إلى آخر النهار ، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا
عليه بآرحتهم ، وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية .

وكان السلطان من « عظماء الشجعان » ، ويضرب به
المثل في الشجاعة ، وقوة النفس ، وشدة الجأش ، ومن
ذلك ما يروى ابن شداد ، فيقول :

« وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو في كل
يوم مرة أو مرتين . . . وكان رحمه الله تعالى - إذا اشتد
الحرب - يطوف بين الصفين ، ويخرق العساكر من الميمنة
إلى الميسرة ، ويرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم والوقوف
في مواضع يراها ، وكان يشارف العدو ويحاوره
- رحمه الله - ، ولقد قرىء عليه جزءان من الحديث بين

(١) « التوارد السلطانية » : ص ١٩ - ٢٠ .

الصفين ، وذلك أنى قلت له : قد سمع الحديث فى جميع
المواطن الشريفة ، ولم ينقل أنه سمع بين الصفين ، فان رأى
المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً ، فأذن فى ذلك فأحضر
جزء كما أحضر من له به سماع ، فقرأ عليه ، ونحن على
ظهور الدواب بين الصفين ، نمشى تارة ونقف أخرى . .
وما رأيت استكثر العدو أصلاً ولا استعظم أمرهم
قط . .

« وقد حارب فى بعض الأحيان عدواً يبلغ عدده إلى
خمسمائة ألف أو ستمائة ألف ، فنصره الله على عدوه ، فقتل
وأسر خلقاً كثيراً منهم . .

« ولقد وصل فى ليلة واحدة نيف وسبعون مركباً على
عكة — وأنا أعدما — من بعد صلاة العصر إلى غروب
الشمس وهو لا يزداد إلا قوة نفس^١ . .

(١) « التوارد السلطانية » : ص ١٦٥ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٥ .

(٣) « التوارد السلطانية » : ص ١٥ .

« ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكة ، حتى القلب ورجاله ، ووقع الكؤوس والعلم ، وهو - رضى الله عنه - ثابت القدم في نفر يسير حتى انحاز إلى الجبل ، يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ، ولم يزل رحمه الله مصابراً لهم ، وهم في العدة الوافرة ١ » .

وبدل على بعد همة السلطان ، وقوة إرادته وصلابة عزمه وتحمسه لدينه ، ما يحكى ابن شداد أن السلطان قال له ذات يوم : « أما أحكى لك شيئاً في نفسى ؟ إنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم واتبعتهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت ٢ » .

(١) نفس المصدر : ص ١٥ - ١٦ .

(٢) « النواذر السلطانية » : ص ١٧ .

وكان السلطان عالماً فاضلاً نساباً . يقول ابن شداد :
« إنه كان حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بسيرهم
وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيلهم ، عالماً بعجائب الدنيا
ونوادرها ، بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من
غيره » .

وذكر بعض المؤرخين أنه كان حافظاً لحماسة أبي تمام
بتأملها .

ويتحدث « لين بول » عن أوائل حياته ، فيقول :

« وكان ميله الطبيعي إلى علوم الدين ، فكان يسمع
الاحاديث من علماء عصره ، ويعكف على البحث عن دلائلها
ورواتها والنقاش حول مسائل الفقه وتفسير آيات القرآن ،
وفضلاً على ذلك ، فكان أحب شيء إلى نفسه أن يدعم

(١) نفس المصدر : ص ٢٧ .

(٢) « البداية والنهاية » لابن كثير ج ١٣ ، ص ٥٥ .

مذهب أهل السنة والجماعة بحجج دامغة ودلائل قوية ثابتة ١ .
انقراض الدولة الفاطمية ومكرمة أخرى للسلطان :

وكانت سيطرة صلاح الدين على مصر نقطة انقراض
دولة العبيديين^٢ المعروفة بـ « الفاطمية » ، التي ظلت تجول
وتصول في البلاد الإسلامية طوال قرنين وثمانية وستين عاماً ،
وأثرت في ثقافة جزء كبير من العالم الإسلامي وأخلاقه
وحضارته تأثيراً كبيراً ، وكان عصرهم مليئاً بالعجائب العقائدية ،
والأحكام الغريبة ، والقوانين المضحكة ، نقدم بعض
نماذجها نقلاً عن كتاب (الخطط والآثار) للقريزي :

« أمر في المواريث بالرد على ذوى الأرحام ، وأن
لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص ٢٦٢ .

(٢) أجمع محققو الأنساب أن بنى عبيد لا ينتمون إل أهل البيت النبوى بصلة ،
ولمّا ينتمون إل رجل اسمه عبيد ، كان مجوسياً ، أو يهودياً ، وقد
استوعب الموضوع القاضى أبو بكر محمد بن الطيب فى كتابه : « الكشف
عن أسرار الباطنية » ، والقاضى عبد الجبار فى كتابه : « تشييد دلائل
النبوّة » ، والمقدسى فى كتابه : « كشف ما كان عليه بنوعيد » .

أخ ولا ابن عم ، ولا يرث مع الولد الذكر أو الأنثى إلا
الزوج أو الزوجة والأبوان والجدّة ، ولا يرث مع الأم إلا
من يرث مع الولد . . .

واعتبر الخروج من هذا القانون عداوة لفاطمة رضى
الله عنها . . .

« وصار صوم شهر رمضان والفطر على حساب لهم . . .
وانقطع طلب الهلال من مصر . . . »

« وفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة أمر العزيز بن المعز
بقطع صلاة التراويح من جميع البلاد المصرية ، ، « وفي
سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ضرب رجل بمصر ، وطيف به
في المدينة من أجل أنه وجد عنده كتاب « الموطأ » ، لما لك
بن أنس رحمه الله ، . »

« وفي ٣٩٣ هـ قبض على ثلاثة عشر رجلاً ، وضربوا
وشهروا على الجبال ، وحبسوا ثلاثة أيام من أجل أنهم صلوا
صلاة الضحى . . . »

(١) « المخطوط والآثار » : ج ١ / ص ٢٤٠ .

« وفي ٢٩٥ هـ قرى. سجل آخر فيه منع الناس من أكل
 الملوخيا التي كانت بحية لمعويه بن أبي سفيان ، ومنعهم من
 أكل البقلة المسماة بالجرجير المنسوبة لعائشة رضى الله عنها .
 « وكتب في صفر من هذه السنة على سائر المساجد ،
 وعلى الجامع العتيق بمصر من ظاهره وباطنه من جميع جوانبه ،
 وعلى أبواب الحوانيت والحجر وعلى المقابر والصحراء : سب
 السلف ولعنهم ، ونقش ذلك ولون بالأصباغ والذهب .
 « شرب الخمر ورخص فيه للناس وفي سماع الفناء
 وشرب الفخار ، وأكل الملوخيا وجميع الأسماك ، فأقبل الناس
 على اللهو ، وتفاقم الأمر في شدة البلاء ، وصاح الناس
 بالظاهر : الجوع الجوع ! يا أمير المؤمنين لم يصنع بنا هذا
 أبوك ولا جدك فأنه الله في أمرنا . »

« وفي ٤٢٤ هـ ركب ولى العهد من القاهرة إلى مصر
 وقد زينت الطرقات ، فكان إذا مر بقوم قبلوا له الأرض ...

(١) . المخطوط والآثار : ٢ / ٣٤١ .

(٢) . المخطوط والآثار : ٢ / ٣٥٤ .

وبويع بالخلافة ، وعمره يومئذ سبع سنين^١ .

وكان حكم السلطان صلاح الدين نهاية هذا العصر المضحك الغريب ، وفاتحة عهد جديد ، بدأت تدرس فيه معالم الشيعة والرفض من مصر ، وازدهرت السنة وانتشرت ، وأمسست المدارس والمعاهد التي كان يدرس فيها علماء السنة علوم الشريعة الإسلامية ، وأخذت تتضاءل رواسب عهد العبيدين ، حتى غابت واختفت ، وقد أصبح مذهب الاسماعيلية - الذي ظل في مصر كدين رسمي طيلة ثلاثة قرون - غريباً في وطنه ، وطريداً في مركزه ، وشريداً في معقله .

« واختفى مذهب الشيعة والاسماعيلية والامامية حتى فقد من أرض مصر كلها^٢ .

وكان عصر حكم العبيدين عصراً ابتلى فيه الاسلام ابتلاءاً عظيماً ، ومنى فيه بمحنة كبيرة ، انتهكوا فيه محارم الله ،

(١) . المخطوط والآثار ، : ٢٥٥ / ١ .

(٢) . المخطوط والآثار ، : ٢٥٥ / ١ .

وتلاعبوا بالشريعة الإسلامية ، ونالوا من السنة وعقائد الإسلام ،
فكان العلماء وأهل السنة مقهورين ومستضعفين ، منخفضي
الرؤوس أذلاء ، ليس لهم حرمة ولا قيمة ، ولا شوكة ولا
سلطان ، وأما الطغاة والأوباش والأوغاد والأجلاف فألقى
جلهم على غاربهم ، يعيشون في الأرض فساداً ، وقد استفحل
أمرهم وتفلقم شرهم .

ويتحدث العلامة المقدسي عن هذا العصر في كتابه
« الروضتين في أخبار الدولتين » ، فيقول :

« وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى
آخرها ، وذلك من ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين
إلى سنة سبع وستين وخمسمائة . وفي أيامهم كثر أعداء أهل
السنة ، واستحكم أمرهم ، ووضعوا المكوس على الناس ،
واقنطى بهم غيرهم ، وأفسدوا عقائد طوائف من أهل الجبال
الساكين بثغور الشام ، كالنصيرية والدرزية والحشيشية —
نوع منهم — وتمكن دعايتهم منهم — لضعف عقولهم
وجاهلهم — ما لم يتمكنوا من غيرهم ، وأخذت الفرنج أكثر

البلاد بالشام والجزيرة إلى أن من الله على المسلمين بظهور
البيت الأتابكي ، وتقدمه مثل صلاح الدين ، فاستردوا البلاد ،
وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد . .

وكان من الطيبي أن يفرح أهل السنة والمؤمنون
الصادقون بهذه الثورة في الحكم ، التي كانت مقدمة لثورة في
الدين والأخلاق ، ويعرب العلامة المقدسي — الذي ولد قبل
تسعة وعشرين عاماً من هذه الثورة ، وشاهد ما أعقبها من
آثار وتقلبات — عما أفعم قلبه من غبطة وفرح كبير ، فيقول :
« انقضت تلك الدولة وزالت عن الاسلام بمصر بانقراضها
الذلة ٢ . . »

وقد حدث العلامة الحافظ ابن قيم في كتابه « الصواعق
المرسلة على الجهمية والمعتلة » عن انتشار الباطنية وعواقبه
ثم يذكر انقراض هذه الدولة بأيدي نور الدين وصلاح الدين
بعبارة تتدفق بالقوة والحماس :

(١) كتاب « الروضتين في أخبار الدولتين » : ٢٠١ / ١ .

(٢) كتاب « الروضتين في أخبار الدولتين » : ٢٠١ / ١ .

ثم خمدت دعوة هؤلاء في المشرق ، وظهرت من
 المغرب قليلا قليلا ، حتى استفحلت وتمكنت ، واستولى
 أهلها على كثير من بلاد المغرب ، ثم أخذوا يطأون البلاد
 حتى وصلوا إلى بلاد مصر ، فملكوها ، وبنا بها القاهرة ،
 وأقاموا على هذه الدعوة مصرحين بها هم وولاتهم وقضاتهم ،
 وفي زمانهم صنفت رسائل إخوان الصفا والاشارات والشفاء
 وكتب ابن سينا ، فانه قال : كان أبى من أهل الدعوة
 الحاكمة ، وعطلت في زمانهم السنة وكتبها والآثار جملة إلا
 في الحفية ، وشعار هذه الدعوة تقديم العقل على الوحي ،
 واستولوا على بلاد المغرب ، ومصر والشام والحجاز ، واستولوا
 على العراق ، وأهل السنة فيهم كأهل الزمة بين المسلمين ،
 بل كان لأهل الزمة من الأمان والجاه والعز عندهم ما ليس
 لأهل السنة ! فكم أغمد من سيوفهم في أعناق العلماء ، وكم
 مات في سجونهم من ورثة الأنبياء ، حتى استنقذ الله الاسلام
 والمسلمين من أيديهم في أيام نور الدين وصلاح الدين ،
 فأبلى الاسلام من علته ، بعد ما وطن نفسه على العزاء ،

وانتعش بعد طول الخمول حتى استبشر أهل الأرض والسماء ،
وأبدر هلاله بعد أن دخل في المحاق ، وثابت إليه روحه
بعد أن بلغت التراق ، وقيل من راق ، واستنقذ الله بعده
وجوده بيت المقدس من أيدي عبدة الصليب ، وأخذ كل
من أنصار الله ورسوله من نصرة دينه بنصيب ..

والكتب التي تؤرخ هذا العصر تحدثنا أن هذا النبأ
الساار تلقى ترحيباً بالغاً من العالم الاسلامى بوجه عام والشام
والعراق بوجه خاص ، وكاد يطير المسلمون كلهم فرحاً
وسروراً .

وبالجملة فان صلاح الدين بينما هو — بالوقوف في وجه
الغزاة الصليبيين الطامعين — قد أنقذ العالم الاسلامى من
الرق السياسى والفوضى الخلقية والثقافية ، وأنجاه من براثن
الزاحفين من الغرب ، إذا هو - بالقضاء على الدولة القاطمية
العبيدية - سد أبواب الفساد الذى قد أخذ يستشرى ويشيع
الباطنية والاسماعيلية لا في مصر فحسب ، بل في العالم

(١) « الصواعق المرسلة على الجهمية والممثلة » : ١ / ٣٣٣ - ٣٣٤ .

الاسلامى كله ، وتمخض عن الفوضى الفكرية والتدهور
العقائدى ، والتفسخ الخلقى الذى ظلت الامة الاسلامية
المنكوبة فريستها طيلة ثلاثة قرون .

إن التاريخ الاسلامى المجيد لن ينسى هذين العاملين
اللذين قام بهما السلطان صلاح الدين الايوبى ، ولن يتخلى
أحد من المسلمين فى أى عصر ومصر من منة هذا المجاهد
الكردى الباسل المغوار .

